هـادي العلـوي

هــوامــش ضــد نحـويـة

مرت بنا هيفاء مجدولة
تركية تنحـى لتركـــيْ
ترنو بطرف فاتن فاتر
اضعف من حجة نحـوي

ابن فارس اللغوي

لكل لغة معضلاتها ووسائلها لحل هذه المعضلات. وفي كل لغة اشكال من القصور عن الاستجابة الكاملة للحاجات المستجدة، بحكم التفاوت بين طور النشأة والاطوار اللاحقة، فاللغة تظهر في بيئة زمكانية معينة فتعكس محتويات هذه البيئة وتتحدد بمقتضياتها، ثم تنتقل، مع استمرارها في الوجود، الى بيئات اخرى قد تختلف كثيرا او قليلا عن بيئة النشأة فتواجه امتحان الوفاء بالتعبير عن المستجدات التي لم تعهدها من قبل. ويفرض هذا التحدي على أهل اللغة استثمار طاقاتها الداخلية الى الحدود القصوى باستخدام ادوات الاستخراج المعروفة وهي : الاشتقاق، النحت والتركيب، التوليد، والاقتباس من اللغات الاخرى، المسمى في العربية : التعريب.

في اثناء هذا التنقل في البيئات الزمكانية المختلفة تواجه اللغة حالة الانفصام بين المحكي والمكتوب، هو ما اصطلحنا عليه بالعامية والفصحى. ويرجع هذا الاختلاف في اصله الى اختلاف المجال والغرض اللذين تستعمل بهما اللغة، فالمكتوب يختص عادة بالتعبير عن الفكر، أي الوعي المتقدم للانسان. والمحكي عن الحياة اليومية، اي عن الوعي العادي ــ العفوي ــ غير المرتبط بمستوى معين من الثقافة المتحركة. وكان هذا الانفصام في العصور الماضية اشد منه في العصر الحاضر، وذلك لاسباب منها : ضيق رقعة الثقافة في المجتمعات القديمة، ضعف وسائل الاتصال بين المجتمعات او اجزائها، نتيجة لتخلف وسائل المواصلات، ومحدودية وسائل النشر والبث. وقد ادت هذه العوامل في جملتها الى نشوء اللهجات من اللغة المحكية. ومن المعروف عند علماء اللغة ان المحكي يتغير بوتيرة اسرع من المكتوب، ولذلك تظهر اللهجات من المحكي لا من المكتوب، لان الاخير يحافظ على وحدته بتأثير ارتباطه المباشر باسس اللغة الام وقواعدها من جهة، وكونه من جهة اخرى انعكاسا للوعي المثقف الاقل خضوعا للضرورة من الوعي العادي.

ان هذا هو السبب في ان العصر الحديث لن يشهد تكون لغات جديدة تتفرع من اللهجات، وذلك بالنظر لاتساع رقعة المكتوب على حساب المحكي، وانتشار الثقافة، ولانه يسير نحو التقنين والسيطرة على السيرورة العفوية للتاريخ، هذا فضلا عن انصرام مرحلة نشوء القوميات، المساوق لنشوء اللغات الجديدة، وسيشهد العصر على العكس من ذلك — وهو يشهد منذ الآن — تقليصاً للهجات بادماجها وتذويبها في اللغة الام، المكتوبة، وعلى المدى البعيد : تقليصا للغات يتماشى مع الاتجاه العالمي نحو التقارب والتوحيد، والخلاص من مشكلة تبلبل الالسن.. ويطمح الماركسيون الى لغة مشتركة ستعم الدنيا في الاطوار الاخيرة من المجتمع الشيوعي، المنشود بناؤه على نطاق عالمي.

تتيح لنا هذه الحقائق في جملتها مشروعية المزاوجة بين العامية والفصحى من جهة، والعمل على حل مشكلات اللغة بحرية اكبر تتجاوز قيود فقهائها وتحكماتهم الارهابية من جهة اخرى. وسيفرض علينا ذلك:

أولا عدم التمسك الجامد بقواعد النحو

ثانيا احترام العامية والاستفادة منها في إغناء اللغة المكتوبة، مع السعي في نفس الوقت الى تطوير العاميات وتقريبها من الفصحى بعد تيسير الاخيرة وتحريرها من فروض النحاة،

وثالثاً استثمار طاقة اللغة العربية الى الحدود القصوى بعيدا عن ارهاب فقهائها، ويقتضينا ذلك عدم الاكتفاء بالاشتقاق لاستخراج المفردات والمصطلحات الجديدة وانما التوسع في النحت والتركيب، والتوليد، والتعريب.

كنت قد تحدثت عن هموم مماثلة في «مواقف» — الحداثة في اللغة عدد 25 — واعطى هنا، في «الثقافة الجديدة»، امثلة ووقائع برنامجية للمطالب المنشودة املا ان تساعد في اضاءة اصول التعامل مع اللغة وتفتح للكتاب بعض الابواب التي اوصدها النحاة في وجوههم..

سعى اللغويون القدماء والمحدثون الى تصنيف حرية استعمال اللغة واستحدثوا في غضون ذلك قيودا لم يلتزمها العرب انفسهم قبل نشوء النحو وقد تغافلوا في نفس الوقت عن مبدأ التطور ومستلزماته فسيّجوا قواعدهم النحوية والصرفية باسوار صلدة يصعب اختراقها.. ورغم ان زملاءهم فقهاء الشريعة قد اهتموا كثيرا بالرخص ومالوا الى التساهل في امور عديدة، لا سيما في اوانات النضج التي شهدت ظهور الفقهاء الكبار، فان فقهاء اللغة اداروا ظهورهم للمرونة التي استخدمت بها اللغة قبل ظهور النحو، فلم يعتدوا بالنصوص الخارجة عن قواعدهم وانما اولوها لتنسجم مع تلك القواعد، أو وضعوها على ملاك الشذوذ الذي لا يصح ان يصاغ في قاعدة، وأورد هاهنا جملة امور :

الخروج على الاعراب في القرآن : وقد ذهبوا في تأويله مذاهب شتى، وكأنهم تحمسوا فيه لحناً فتحاشوا الاعتراف به والتمسوا له المعاذير، ومؤخرا تجرأ لغوي شاب فصرح ان الموارد التي خرج فيها القرآن على الاعراب هي لحن حقيقي، لكنه ليس ناتجاً عن سوء استخدام اللغة أو عدم المعرفة بها، بل هو حالة مرتبطة بأصل قبنحوي يفيد أن الاعراب وجد لايضاح المعنى وصيانته من اللبس. فاذا توفر الامن من الالتباس دون الاعراب جاز إهماله. (انظر : د.تمام حسان ــ القرائن النحوية واطراح العامل والاعرابين التقديري والمحلي ــ مجلة اللسان العربي م11 ج 1 /1971).

ومن تطبيقات هذه القاعدة في النصوص :

قول منسوب لامرىء القيس يستشهد به النحاة انفسهم:

فاليوم اشربْ غير مستحقب اثما من الله ولا واغل

وقد أهمل اعراب المضارع المرفوع وجعله ساكنا. وأود التنبيه على مدى غفلة النحاة وعدم تدقيقهم فهم يتداولون هذا البيت لامرىء القيس دون ان يثير انتباههم ما فيه من نفس اسلامي يؤكد أنه منحول.

وبيت لحسان بن ثابت :

فجعلتني غرض اللئام فكلهم يرمي بلؤمه بالغاً كمقصر

والشاهد هنا هو تسكين الهاء بدلًا من كسره وهو اعرابه كضمير مبني على الكسر.

ومن آثار المحدثين قول ابو نواس :

الا أيها القاضي الذي عم عدله فاضحى به في العالمين فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة فلم ار فيه للشراب حدودا
فان شئت أن تجلد فدونك منكباً صبوراً على ريب الزمان جليدا

وقد سكن ابو نواس فعل المضارع المنصوب بأن

ومن الشواهد المتأخرة هذا البيت للسراج الحميري، وقد وجدته في اوراق مخطوطة بمكتبة الامبروسيانا في ميلانو :

يا سائلي عن بناتْ نعش وطالعها في اشهر الروم هاك اسمع معانيها

فهنا سكن القائل «بنات» التي يجب ان تكون مكسورة، وكأنه اعتبرها مع «نعش» كلمة واحدة على سبيل الاصطلاح ويعطينا هذا الشاهد مثالا على التركيب في صياغة المصطلحات وسنتحدث عنه فيما بعد.

وقد تساهل القدماء في اعراب «ابو» فتركوها في حالة رفع دون اعتبار لموقعها في الجملة وكان ابو حنيفة يلتزم ذلك كما روى عنه الخطيب البغدادي، كما التزمها الشافعي في مواضع من «الرسالة» كقوله : اخبرنا سفيان عن سالم ابو النصر ــ انظر ص 89 من طبعة احمد محمد شاكر.. وقد تعودوا ان يقولوا علي بن ابو طالب ومعاوية بن ابو سفيان ويذكر الاصمعي ان قريش كانت لا تعرب «ابو» كما نعربها الآن.

وللشافعي في «الرسالة» مخالفات لقواعد النحو رتبها احمد محمد شاكر في فهرس وقال ان لكل منها وجهاً في العربية. وبغض النظر عن ذلك فان الشافعي تصرف هنا في تعارض مشهود مع النحاة. ومن هذه :

ــ عدم حذف ياء المنقوص النكرة . كقوله :

فرق النبي عمالا على **نواحي** ــ ص 415

ولم يقل : نواح :

ــ تذكير وتأنيث العدد من دون التقيد بجنس المحدود. وهنا قوله :

ان صوم الثلاثة في الحج **والسبع** في المرجع عشرة ايام كاملة ــ ص 26

فهنا قال «السبع» وكان يجب ان يقول : «السبعة».

ــ حذف أن المصدرية كقوله :

عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ــ ص 49

بدلًا من : عليه ان يتعلم وهو تعبير عامي يستخدمه الشافعي فيعطي مثالاً على امكان الدمج بين العامية والفصحى. ومن هذا القبيل ايضا ايراده عبارة لابن عباس جواباً على اعتراض حول احدى فتاواه :

«إمّا لَي فاسأل فلانة ..... ص 44

أي ان لم تصدق فاسأل فلانة وأصلها : «إما لا» فأمال الالف على طريقة العوام.

* * *

من ادوات الاستخراج الهامة التي وجدت في العربية وحرمها اللغويون : النحت والتركيب. وقد استخدمها الجاهليون لحل مشكلات النسبة الى الاسماء المضافة، مثل عبد الدار وعبد القيس وعبد شمس فقالوا : عبد ري وعبقسي وعبشمسي، وللنحت جذور ابعد في العربية، فقد رجح بعض اللغويين القدماء ان كل مفردة رباعية او خماسية هي من اصلين منحوتين. ومن امثلته : **دحرج** قالوا انها نحت من : دحر وخرج او حرج. وقال الخليل الفراهيدي **ان ليس** منحوتة من **لا ايس** وهو تخريج معقول لان الليس ضد الايس وهو الوجود. وهذه كلمة مشتركة مع

اللغات الهندوربية التي تستعمل الفاظاً مقاربة لفعل الكينونة. وقد استخدم الاسلاميون النحت لنفس الغرض فقالوا في النسبة الى ماء الورد : **ماوردي**، والى دار القطن ــ محلة ببغداد ــ **دار قطني** والى رأس العين ــ في مصر ــ **رسْعني**. وتتضمن الأخيرة اختزالاً شديداً حذف فيه ال التعريف والهمزة والياء ومن هذا القبيل قولهم في النسبة الى ابو هاشم : **بهشمي**. وابو هاشم من رؤوس المعتزلة وله مدرسة عرفت باسم البهشمية.

ومع ازدياد الحاجة الى النحت ينبغي التوسع فيه، لان القدماء استخدموه في حدود الحاجة ولا عبرة بما يقوله النحاة ان العرب لم يتوسعوا فيه فيجب ان لا نتوسع، ما داموا قد استخدموه في المواضع التي تستدعيه، وما دام قد وجد في اصل اللغة وقام بدوره في صياغة مفردات جديدة. ويجب على الكتاب المعاصرين عدم الالتفات الى اقوال النحاة أو مراعاة امزجتهم العقائدية، وان يتقيدوا بالحاجة المتزايدة الى استخدام هذه الاداة المهمة.

لقد ظهرت في هذه الحقبة من تاريخنا الحديث نحوت وتركيبات فرضت نفسها على الجميع. فصرنا نقرأ : **برمائي**، **كهرو مغناطيسي**، **بتروكيميائي** ... الخ ثم صار الكتاب يقولون : **قروسطي** للقرون الوسطى **وشرق أوسطي** للشرق الاوسط وقال بعضهم **شمال افريقي**، **وقبتاريخي** اي ما قبل التاريخ.. وظهر مؤخرا اصطلاح : **اجتصادي** نحته كمال ابو ديب مقابل Socio-économic وارجو ان يتعمم لأنه ادق وأخصر من المصطلح الاجنبي، واللغة العربية تتقبل مثل هذه النحوت كما تتقبل التركيب. وعلى هذا الغرار يمكن ان نقول مثلا : **اورو امريكي** بدلا من اوربي ــ امريكي، **اورو شيوعي** بدلا من شيوعية اوربية، **قبإسلامي** بدلًا من : ما قبل الاسلام، **قبميلادي** بدلا من : ما قبل الميلاد، وهذه البادئة استحدثها الكاتب العراقي عبد الحق فاضل منذ الستينات لكنها لم تتعمم حتى الآن خوفا من فقهاء اللغة، ولدينا بالمناسبة مفردات عديدة تصلح ان تكون بوادىء لتركيب ونحت المصطلحات، منها : تحت، فوق، غير، لا، عدم، بعد، شبه، ضد، وحرف الزاي للازالة، وقد استحدثه البعلبكي في المورد مقابلا للبادئة الانكليزية De. واعطى لذلك بعض التطبيقات:

تَحَتْ ــ جلدي. استخدمه البعلبكي باضافة ياء الى تحت فقال : **تحتي ــ جلدي**، تجنبا لإثارة النحاة بتحريك الحاء وتسكين التاء من تحت، وتعاقب الياءين في الاصطلاح يمنع من صيرورة مقطعين كلمة واحدة فمن الافضل الاكتفاء بالتركيب على النحو الذي اثبته.

فوق طبيعي. جعله البعلبكي : **فوطبيعي** واخشى ان يكون ملتبسا ولذلك فانا افضل التركيب دون النحت هنا.

الغير فاعل هو اسهل من غير الفاعل لانه يدمج البادئة في الكلمة فيجعلها مفردة واحدة. لا متناهي وهو معروف وشائع.

- بَعْدَ ــ فلاني، بدلا من : ما بعد فلان، لتسمية العصر ــ او المجتمعات. ومثاله : الصين البعد ماوية، العراق البعد قاسمي، مصر البعد ناصرية ...الخ. وان كنت لا ارى استبعاد : ما بعد نهائيا فربما استدعاها السياق وكانت اسوغ كأن نقول : صين ما بعد ماو وعراق ما بعد قاسم ومصر ما بعد ناصر والامر متروك لاختيار الكاتب وتقديره.

شبه بشري او بشراني، مقابل ANTHROPOID.

ضد حيوي، بدلا من مضاد للحيوية.

زملحة : ازالة الملوحة هو من وضع البعلبكي.

ومن استعمالات النحت والتركيب في غير النسبة :

ــ البيوكيمياء . بدلا من الكيمياء الحيوية، وقد رأيتهم في دمشق يكتبون على مختبراتهم : تحاليل كيميائية حيوية، دموية، جرثومية، مما يوهم القارىء ان هناك صنفين من التحليل : كيميائي وحيوي، ولو قالوا : تحاليل بيوكيميائية لكانوا منطقيين اكثر.

ــ الكهرطيس : بدلا من المغناطيس الكهربائي او الكهرباء المغناطيسية

ــ البترو دولار : هو شائع الآن.

ــ الكهرو كيمياء : بدلا من الكيمياء الكهربائية.

* * *

منع النحاة من اضافة ال الى الفعل او معاملته معاملة الاسم على سبيل الاصطلاح. وقد اعتبر الجوهري قول القائل :

يقول الخنا وابغض العُجم ناطقا الى ربنا صوت الحمار **اليُجدَّعُ**

من الضرورات القبيحة في الشعر، لكن ال هنا لا تدل حصراً على التعريف وانما هي تفيد في نفس الوقت معنى «الذي» ونحن نقول في العامية : اليكتب اليذهب اليرجع بمعنى : الذي يكتب والذي يذهب والذي يرجع.. وقد استعملا في هذا المعنى الفيروزأبادي في ديباجة القاموس فقال :

«وانت ايها **اليلمع** العروف»

من دون ان تمليها عليه ضرورة شعرية لانه يكتب نثراً

وقد يرد الفعل في صيغة اسم نكرة، ومن قول اعرابي متسول يشتم الاغنياء :

رب عجوز عِرْسِ زبـــون سريعة الرد على المسكين
تحسب ان «**بوركاً**» تكفيني اذا غدوت باسطا عيني

يقصد قولها : بورك فيك، حين تريد طرده.

ومن هنا ينبغي تجويز صياغة الاصطلاح من الفعل ومعاملته كإسم. مثل قولنا :

يصدأ للمحدث القابل للصدأ ويمكن تصريفه عن هذا الشكل:

الحديد اليصدأ. وفي حالة النفي : الحديد اللا يصدأ او المايصدأ وهذه الصيغة تقرب الفصيح من العامي. هو ما لا ينبغي ان نستنكف منه كما يفعل النحاة.

* * *

التوليد باب هام في الاستخراج اللغوي وهو يعني استحداث معنى جديد لمفردة قديمة له صلة قريبة او بعيدة بمعناها الاصلي، يكون ذلك عن سبيل المجاز. ومن المعروف ان معظم المصطلحات التي استحدثها الاسلام كانت بالتوليد مثل : الصلاة، الزكاة، الحج، الفيء، الخراج، الفقه، الحد، الآية، والسورة...الخ. واعتمدت الفنون الادبية والعلمية على التوليد؛ فمصطلحات عروض الخليل معظمها مولد، وكذلك مصطلحات اللغويين بما فيهم النحاة والمؤرخين والمتكلمين والفلاسفة.. ويحتفظ التوليد حاليا باهميته السالفة، وهو معتمد في اللغات اجنبية كما في العربية لاستخراج المصطلحات الجديدة. ان الكثير من المصطلحات العلمية والفنية الشائعة في الانكليزية وغيرها، والمنتشر بعضها عالميا، هي مفردات مولدة — ومثالها : (Knob) معناها الاصلي : عُجْرة وهي العقدة في الغصن، وتطلق الآن على الزر الكهربائي والقرينة بعيدة جداً وهي كون الزر ناتئاً والعُجْرة ناتئة كذلك. وكلمة «هيولى» يونانية معناها الاصلي «خشب ثم اطلقها فلاسفة اليونان على المادة وقرينتها ان الخشب احد الاشكال المشهورة والمتوفرة للمادة فسميت بذلك التغليب، ويلاحظ هنا ان «مادة» اصطلاح متأخر عن ظهور اللغة لانه «مدرك عقلي» ولذلك لم توضع له مفردة مستقلة في اصل اللغات التي تبدأ عادة في بيئات غير متقدمة فكريا ومن هنا ولد الانكليز المادة Matter وهي في الاصل امر أو موضوع او مسألة والقرينة ان المادة حقيقة بشار اليها ويبحث عنها. والكثير من التوليد يعتمد على قرائن ضعيفة الجأت اليها الحاجة الملحة للتعبير عن مستجدات الاطوار اللاحقة لطور النشأة. وربما ولدت كلمة في اصل لا علاقة له به البتة، ومثاله : Broker تطلق اليوم عن سمسار الأسهم والسندات وهي في الاصل فاتح قوارير الخمر.

وقد استخدم التوليد في العربية الحديثة واقره اللغويون، ومن امثلته الهاتف للتلفون وقرينته ان اسم الصوت المنبعث من التلفون يشبه الهتاف وهو صوت يسمع دون أن يرى صاحبه. وهي قرينة بعيدة لا تعبر عن طبيعة التلفون. مع ملاحظة ان اسم التلفون هو الآخر يعبر عن طبيعته فهو مكون من مقطعين يونانيين téle ومعناه من بعيد، phone وهو الصوت. والمقصود : الصوت القادم من بعيد. لكن هذا الصوت لا يقتصر على التلفون فهو يأتي ايضا باللاسلكي والمذياع والتلفزيون، ومن الموالدات البعيدة القرينة : القنبلة واصلها «قنبرة» سميت بذلك لانها تنبش الأرض كالقبرة ويبدو أنها حرفت الى قنبلة لسهولة اللفظ، والقنبلة في العربية هي جماعة

الخيل. ومن المولد : «البندقية» وقرينتها قريبة لانها في الاصل آلة صيد ترمي البندق وما في حكمه من المقذوفات. وكانت معروفة في العصور الاسلامية.

والتوليد باب واسع يمكن الاستفادة منه في تكوين المفردات الجديدة. واكثر الكلمات صلاحاً لهذا الغرض هي الكلمات المهجورة والميتة لان معناها الاصلي غير معروف فاذا اطلقت على شيء حديث اقترنت به في الاذهان على سبيل الانفراد وعدم الاشتراك. ومن امثلة ذلك قطار معناه الاصلي رتل الابل وهو غير متداول فلما سميت به آلة النقل الحديثة التي تسير على الحديد انحصر مدلوله فيها. وهذا هو ايضا شأن السكة، وهي في الاصل : الطريق لكنها غير شائعة بهذا المعنى وإنما عرفت كإسم للطريق الحديدي الذي يسير عليه القطار، واذكر اني كنت اقرأ، وأنا في المدرسة المتوسطة، كتابا في التاريخ فمرت بي عبارة في مجرى الحديث عن حركة زيد بن علي في الكوفة، وفيها يتكلم المؤرخ عن القتال الذي جرى في «سكك الكوفة» بين أهل الكوفة وجنود اهل الشام، فالتبس علي الامر وتساءلت في نفسي عما اذا كان يوجد قطار في ايام زيد بن علي !

ان المعجم العربي يكفل تزويدنا بالعديد من المفردات القابلة للتوليد وذلك بفضل اتساعه وثرائه، وينبغي ان لا يمنعنا من استخراج المفردة غرابتها وكونها غير مفهومة في البدء، لأن الاستعمال سيحدد لها معناها ويجعلها مألوفة، وكل اصطلاح جديد يبدأ غريبا ثم يألفه الناس بالتكرار.

° ° °

يلح النحاة على الفرق بين الضاد والظاء رغم صعوبة التفريق الناشئة عن تقارب اللفظين. وقد حاول بعضهم وضع معايير لذلك، كالصاحب بن عباد الذي نشرت له رسالة عن (الفرق بين الضاد والظاء) لكنه فشل كما فشل غيره في وضع معيار عملي دقيق. ولم تكن ثمة حاجة الى هذا العناء لولا التزمت الذي يتجلبب به فقهاء اللغة. فالعرب لم يكونوا معنيين بهذا التفريق مثلما عني به النحاة فيما بعد. وقد نقل ابن خلكان في (وفيات الاعيان) عن ابن الاعرابي، احد أئمة اللغة في القرن الثاني للهجرة كلاماً جاء فيه :

«جائز في كلام العرب ان يعاقبوا بين الضاد والظاء فلا يخطيء من يجعل هذه في موضع هذه...»

وهذا نص قاطع من مصدر لغوي كبير على عدم ضرورة التفريق بين الحرفين، وهو يمنحنا حرية التصرف في كتابتهما دون الخوف من التخطئة او الاتهام بالهرطقة.. وينبغي مع ذلك مراعاة عدم الاشتراك في الحالات القليلة التي تتشابه فيها مفردتان لفظا وتختلفان كتابة. وفيها مثلا : يظفَر بمعنى ينتصر ويضفُر اي يفتل ويلوي، ومنه الضفيرة للشعر، ورغم ان المفردتين

غير متماثلتين تماما لان الاولى مفتوحة العين والثانية مضمومة فمن الافضل تمييزهما بالكتابة رفعاً للالتباس، وفي هذه الحالات القليلة ايضا : ظل بمعنى بقي وضل بمعنى زاغ وانحرف ومراعاة الفرق في كتابتهما لازمة لمنع الالتباس، وان كنت افضل لو استغنى الكتاب عن (ظل) واستعملوا بدلها : بقي، مكث، ثوى، لبث...

تحت طائلة الارهاب النحوي يضطر الكتاب، لا سيما الصحفيين القليلي الخبرة الى التزمت في استثمار محصولهم اللغوي ويفوتون على انفسهم رُخصاً في اللغة كان القدماء لا يتورعون عنها، وهي الآن اكثر الحاحا ولننظر في بعض التفاصيل.

النسبة الى الجمع

يزعم النحاة ان النسبة الى الجمع لا تجوز، فلا يصح عندهم ان نقول : المؤتمر العمالي او المظاهرات الطلابية بل المؤتمر العاملي والمظاهرات الطالبية. ولا يجوز ان نقول : عقائدي بل «عقدي» نسبة الى عقيدة [حيث يجب حذف الياء !]، وقد اضطرت جريدة واسعة الانتشار كالسفير اللبنانية الى الوقوع في هذه الحذلقة فصارت تقول : الطالبي بدلا من الطلابي..

والنحاة يكذبون على اللغة كذباً صُراحا. يدل على ذلك كثرة الاسماء التي وردتنا من العصور الاسلامية منسوبة الى جمع ومنها : الدوانيقي والقراطيسي والصناديقي، واصطلاحات من قبيل : شعوبي، وساعاتي وكتبي.. وهم يغفلون ايضا عن حقيقة الاختلاف في مدلولات المفرد والجمع والصيغ المختلفة للجمع. فمثلا كلمة : **جماهير** تحمل مدلولا سياسيا يختلف عن مفردها : **جمهور** والنسبة اليها تختلف ايضا، فعندما نقول : **جماهيري** نعني شعبي واسع النطاق، وهو لفظ يساري المنشأ والمآل ولذلك يتحاشاه اليمين الا في المزايدات.. وعندما نقول : **جمهوري** فانما نعني النسبة الى «جمهورية»، ومن هذا القبيل كلمة **عامل**. اذا جمعت على عوامل افادت معنى الاسباب والمؤثرات واذا جمعت على **عمال** افادت معنى الطبقة العاملة، واذا جمعت على **عاملين** شملت مجموع الذين يعملون في مضمار ما او مؤسسة ما بصرف النظر عن موقعهم في الانتاج ؛ عمالاً ام اداريين ام تكنوقراط.. فاذا اخذنا باوامر النحاة حصرنا النسبة لكل هذه الحالات المتفاوتة في كلمة «**عاملي**» وهي لن تعني في الحقيقة غير النسبة الى جبل عامل الاقليم الشيعي المعروف الذي يتنافس العديد من زعماء الشيعة على اكمال تسليمه لاسرائيل.. وعلى ذكر التفاوت في مدلولات صيغ الجموع نقول انها توفر فرصا طيبة لتوسيع وتنويع مدلولات المفردة الواحدة واشتقاق المصطلحات. وعلينا ان لا نتردد في استثمار هذه الميزة الهامة في لغتنا خوفا من وعيد الفقهاء.

نصب اسم لا النافية للجنس

المعروف ان اسم لا النافية للجنس يكون منصوبا في العادة، فاذا جاء مقترناً بصنعة وجب الحاقها به في النصب. لكن التزام هذه القاعدة حرفياً يخالف الغرض من الاعراب وهو الأمن من الالتباس، لانه يؤدي الى الخلط بين النعت المنصوب وبين الحال، فاذا قلنا مثلاً « لا حل سياسيا لقضية فلسطين» ربما انصرف الذهن الى ان «سياسيا» منصوبة على الحال، ولذلك يجب عدم التقيد بالنصب واجراء العبارة على هذا النحو : «لا حل سياسي لقضية فلسطين» ويمكن قراءتها بالتسكين اسوة بالشواهد التي مرت بنا، او بالرفع على اعتبار ان «لا» تفيد النفي بوجه عام. وقد جرت العادة على كتابة امثال هذه الجمل بهذه الطريقة ومن دون حذلقة، غير أن لحاجة النحويين فرضت على البعض اللجوء الى هذه الصيغ الملتبسة التي تشيع الآن في صحف بيروت

التقييم والتقويم

كنت قد تناولت هاتين الكلمتين في «مواقف» وأرى من الضروري اعادة الخوض فيها لأنها كثيرة الورود في الصحافة والكتب.

يزعم النحاة ان كلمة «تقييم» خطأ ويوجبون استعمال «تقويم» بدلًا منها والكلمتان في الحقيقة مختلفتان تماما. فالتقييم مشتق من القيمة والتقويم من القوام، ومعنى الاول التقدير والتثمين ومعنى الثاني التعديل. ان ما دفع النحاة الى هذا القول ان القدماء كانوا يقولون لمن يثمن ويقدر : «يقوم عليه الشيء بكذا» وقياسهم هنا صحيح. ومن المعروف ان القيمة اصلها : قومة فابدلت باء لتسهيل لفضها. لكن هذا الابدال في حد ذاته دليل مضاد لقياسات اهل النحو ؛ فاذا كان ممكنا جعل القومة قيمة فلماذا لا يمكن استقاق المصدر المزيد من المقلوب ؟ ان الاشتقاق من المشتق من الامور الماشية في اللغة ومنه مثلاً : الصداقة اشتقت في الصديق وهو بدوره مشتق من الصدق. وهكذا فان التباس تقويم بمفهوم التعديل يوجب العدول عنه الى صيغة مشتقة من «القيمة» وهو اقل تعسفا من جعل القومة قيمة. وبذلك تتمايز المفردتان ويكون لنا اصطلاح مستقل لكل من التعديل والتثمين.

يجب ان لا
لا يجب ان

يقول النحويون ان العبارة الاولى صحيحة والثانية خطأ، والحقيقة ان كلتيهما صحيحة وكلا منهما تؤدي معنى لا تؤديه الاخرى، فقولنا «يجب ان لا يحدث هذا» هو ايجاب عدم الفعل، وقولنا : «لا يجب ان يحدث هذا» هو نفي للايجاب وليس للفعل، فهو يفيد جواز الحدوث وعدمه ولتوضيحه نضرب هذين المثالين :

1 ــ يجب ان لا يسهر المريض.
2 ــ لا يجب ان يسهر العالم.

في الاول إيجاب عدم السهر على المريض وهو وجوب يدخل في طبيعة المرض التى تقتضي عدم السهر لانه ينهك جسم المريض، وفي الثانية عدم الزام العالم بالسهر لانه يستطيع ان ينجز اعماله في النهار، ولو قلبنا العبارتين فقلنا :

1 ــ يجب ان لا يسهر العالم.
2 ــ لا يجب ان يسهر المريض.

لوقعنا في خطأ، لان الاول يستفاد منه منع العالم من السهر في حين ان طبيعة عمله لا تمنع من ذلك بل ربّما تقتضيه وكثيرٌ من العلماء ينتجون في الليل اكثر مما في النهار، وفي الحالة الثانية خيرنا المريض بين ان يسهر او لا يسهر بينما تفرض عليه طبيعة المرض ان لا يسهر وكأننا افترضنا ان المريض يحتاج الى السهر لكننا تساهلنا معه فخيرناه بين الحالتين.

مثل هذه الفروق الدقيقة في التعابير لا يدركها النحاة لان اذهانهم متكلسة بالقواعد التي اخترعوها بانفسهم. وهم باصرارهم على هذا الجمود المقنن يضيقون آفاق اللغة ويحدون من قدرتها على التعبير. وعندما يضطر الكتاب الى مراعاة امزجة النحويين فانهم لا يفقدون فقط حرية الكتابة بل والدقة في التعبير.

* * *

من هنا لا يمكن اخذ اللغة من النحاة واللغويين وانما هي تؤخذ من الممارسة، مع تعلم الحد الادنى من القواعد، وهو الحد الضروري للتمكن من صياغة الجمل على الوجه المفهوم المانع من الالتباس ويقتضينا ذلك قراءات موسعة للنصوص بدلًا من الانهماك في دراسة علم النحو... ولننظر في هذين المقتطفين لنرى مدى الدقة التي يتكلم بها ذوو الاختصاص من القدماء وهما من كتاب «المواقف» للايجي، الذي يشتمل على موسوعة فلسفية ترجع الى القرن السابع الهجري..

1 ــ حول العلاقة بين المادة والحادث (الشيء الذي يحدث ويتشكل)

«ان الحادث تارة يوجد عن تلك المادة كالاعراض، وتارة **يوجد فيها** كالصور وتارة **يوجد معها** كالنفوس الناطقة..»

2 ــ حول اشكال الوحدة

«الوحدة تتنوع، ولكل نوع منها اسم ؛ ففي النوع مماثلة، وفي الجنس مجانسة وفي الكيف مشابهة وفي الكم مساواة، وفي الشكل مشاكلة، وفي الوضع موازاة وفي الاطراف مطابقة..»

ان قراءة مثل هذه النصوص كلا في حقله المخصوص اجدى من دراسة كتب النحو التي تعلم الناس القواعد وتجعلهم نُحرسا في عين الوقت. وقد وجدت مصداقا لذلك عند اقامتي في الصين حيث لاحظت معظم الصينيين الذين تخصصوا في العربية يعرفون النحو اكثر من اي مثقف عربي لكنهم لا يستطيعون كتابة جملة واحدة صحيحة. ويرجع ذلك الى انهم درسوا العربية على يد اساتذة اللغة من العرب وفقا لمناهج التدريس المتبعة في مدارسنا وجامعاتنا فجاءوا حفاظا من الطراز الاول !

يتصل بما ذكرناه عجز بعض الكتاب والمترجمين عن الكتابة العلمية السليمة وانبارهم الحدلقة والتشبث باهداب النحو على حساب التعبير المكثف الدقيق، من طراز ما قرأناه للانجي. وفيما يلي وقائع من التخبط استعرضها دون الاشارة الى اصحابها لأني لا اتوخى التشنيع على احد:

في كتاب فلسفي مترجم ورد :

1 ــ الكهرباكيميائية . يقصد **الكهروكيمياء** لكن المترجم يخاف من النحت فاكتفى بحذف الهمزة حتى لا يثير عليه اللغويين فجاء اصطلاحه سمجا ثقيلا.

2 ــ ترجم Contingent الى جائز و Nécessaire الى ضروري وكان عليه ان يرجع لمصطلحات الفلسفة العربية فيجد : الممكن بدلًا من الجائز والواجب بدلًا من الضروري ولا يكلف نفسه استحداث مصطلحات غير دقيقة في قضايا ناجزة ومع وجود لغة فلسفة متبلورة.

3 ــ ولنفس السبب استعمل الكاتب نفسه اصطلاح «ظاهر» بدلا من «عَرَض» الذي مشت عليه الفلسفة الاسلامية واكتسب من خلالها شخصية الاصطلاح المتميز والمعبر عن طبيعة الموضوع المتعلق به.

ينبغي ان اذكر ان هذا الشكل من التخبط يرجع من جهة الى ان مترجمي الفلسفة المعاصرة لم يقرأوا الفلسفة القديمة، ومن جهة أخرى الى عدم استعمالهم المعاجم المتخصصة وهي كثيرة منها عند القدماء : «التعريفات» للجرجاني، «مفاتيح العلوم» للخوارزمي، و «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي وهو موسوعة ضخمة في المصطلحات العلمية والفلسفية القديمة. ومن الكتب الحديثة المعجم الفلسفي ليوسف كرم، صغير، و «المعجم الفلسفي» لجميل صليبا ويقع في مجلدين كبيرين استوفيا معظم المصطلحات الفلسفية القديمة و الحديثة.

في كتاب مترجم آخر يرد :

ظاهرة المفارقة الظاهرية.

وها هنا التباس. فالظاهرية تختلط بظاهرة، وكان على المترجم ان يأتي بمرادف لاحديهما فيقول مثلا : حالة المفارقة الظاهرية، لكن الكتاب مولعون بترديد مصطلح «ظاهرة» واطلاقها جزافاً على احداث وأحوال وواقعات قد لا تتضمن بالضرورة مفهوم الظاهرة.

ويعاني الكتاب تخبطاً في المفردات لعدم تمرسهم في القاموس وتطبيقاته، وقد اظهروا في هذا الجانب فقراً مدقعا في فقه اللغة. فهم مثلاً يفرقون عند الترجمة من اللغات الاوربية بين الانسان والرجل فيترجمون كل : Man الى رجل. ومن المعروف ان في اللغات الاوربية لفظاً واحداً يدل عليهما، وهو انعكاس للمرحلة الابوية الناجزة التي نشأت فيها اللغات الاوربية، والعربية تفرق بينهما والمطلوب من المترجم ان يعرف قصد الكاتب الاجنبي من السياق ليحدد اذا كان يريد انسان ام رجل ؟

ومن فقرهم في فقه اللغة انهم لا يعرفون من اسماء الزمن الا كلمة واحدة هي العصر، التي يستخدمونها دون اعتبار الفرق في المدة، فيقولون : العصر الجليدي لزمن يمتد ألوف السنين والعصر الاموي لزمن لا يزيد على تسعين عام. وهذه بعض مفردات الزمن :

الدهر، وهو مجموع ازمنة طويلة : **الامد** للزمان الطويل، **البرهة** للزمان الطويل ايضاً، **الحقبة** لما يقارب مئة عام، **الاوان والحين والمدة والوقت** مرادفات عامة للزمن ويختص الوقت غالبا بالايام والساعات.

وفي التطبيق يمكن القول :

الدهر الجيولوجي الفلاني، الامد الحجري، البرهة الفرعونية، الحقبة السومرية. العصر الاسلامي، الاوان الفكتوري... الخ

ويمكن القول :

اوان محمد او المسيح او كونفوشيوس، عصر الاستعمار، زمن الردة ...الخ

ولا يستخدم الكتاب من مفردات عمر الانسان غير ثلاثة للذكور هي : طفل، شاب، وشيخ وغير ثلاثة للاناث هي طفلة، شابة، وعجوز، بينما تتعدد الاسماء، بتعدد اطوار النمو، فنجد للذكور :

جنين (مشترك)، وليد، رضيع، طفل، صبي، يافع، غلام، فتى، شاب، كهل، شيخ، مسن، معمر، يَفَن..

ـــ وللإناث

مؤنث الاسماء من وليد الى يافع ثم كاعب (مرادف ليافع)، فتاة، مؤنث شاب، مؤنث كهل، عوان، عجوز، حيزبون...

ويردد الكتاب كلمة «عملية» كما يرددون «ظاهرة» مهما كانت طبيعة الحدث. وقد قرأت في احدى الصحف : مشهد من عملية تشييع، والتشييع حادثة أو اجراء وليس عملية، وهو لا يحتاج الى وصف يقيده وانما يكفي ذكره وحده للدلالة على طبيعته.

ولا يعرف الكتاب كيف يصوغون عبارة دالة على المعنى دون حشو. وقد تعودوا ان يردفوا معظم الجمل الفعلية بكلمات : قام، جرى، أو تم... ولننظر في هذا المثال :

قام الدكتور فلان بتحقيق وشرح الديوان وطبع في باريس.

وهي عبارة يمكن انجازها بالشكل التالي :

طبع الديوان في باريس بتحقيق وشرح الدكتور فلان.

ومن امثلة الاطناب والحشو :

لقد شاهدت ثلاثة عراقين من عراقي النقدية التجريبية.

وكان يمكن ان تكون :

لقد شاهدت ثلاثة من عراقي التجريبية ــ النقدية.

ويبلغ بهم العجز عن الايجاز حد القول :

كونفوشيوسيون وباكونينيون.

بدلا من : كونفوشيون باكونيون.

وانظر الى هذه العبارة :

تعلم ــ فلان ــ الهندسة والرياضيات تعلماً اصوليا وتعلم علم الاقتصاد تعلما ذاتيا وكان يكفيه ان يقول :

تعلم الهندسة والرياضيات في المدرسة وتعلم الاقتصاد بنفسه.

وللكتاب ولع بياء النسبة يجعل سطورهم محشوة بالسجع المتكلف. ولنقرأ :

قيادة سوفيتية مستقبلية.

التعرف على الملذات المدينية.

عرض الامر على اللجنة التحكيمية.

وهي في اللغة السليمة :

قيادة سوفيتية مقبلة او لاحقة او مستقبلة (مستقبلية اصطلاح فلسفي يطلق على مذهب برجوازي يريد أن يكون بدلا عن الماركسية).

التعرف على ملذات المدينة ــ او المدن ــ.

عرض الامر على لجنة التحكيم.

ولنقرأ هذا العجز الفاضح :

التأويل خاصة عامة للكائن البشري.

وهو يقصد :

التأويل ميزة مشتركة للانسان.

ومن مرادفات ميزة : صفة، سمة، خصلة، سجية، خصيصة.. بينما تبدو كلمة «خاصة» هنا ضداً لكلمة عامة التي جعلها الكاتب صفة، وينبغي ان يلاحظ ان هذه المفردة تكتسب دلالتها على الميزة والسمة والصفة عندما تكون في حالة جمع فقط (خواص) وقد تحدثت في بند سابق عن الدلالات المستقلة لصيغ الجموع في العربية.

* * *

في العامية مفردات فصيحة مستعملة بتمامها او محرفة قليلا، وقد دأب الكتاب على استبعاد كل كلمة من هذا القبيل حتى لو كانت من مفردات القاموس بتأثير الارستقراطية اللغوية التي سرت اليهم من اللغويين. ومن امثلة هذه :

كلمة : **راهي** في العامية العراقية، وتعني الواسع المتمكن والكبير وهي مرادف دقيق لكلمة Large في الانكليزية. وهذه الكلمة فصيحة. ورد في اساس البلاغة للزمخشري : جاء فلان راهيا رافها، وقد اشتق منها العوام : رهاوة بمعنى السعة والتمكن.

فعل : **حط** يحط بمعنى وضع يضع ومفعوله : محطوط وهي عامية مشتركة في الكثير من اللهجات العربية، لكن الكتاب يستنكفون منها ويقعون بسبب ذلك في الالتباس والعوز. ففي مقابل Large يضعون واسع او كبير بينما الصحيح، راهي، ويتحدثون عن الشيء الذي يوضع في مكان ما فيقولون : موضوع في كذا فيختلط باصطلاح **موضوع** الذي يستخدم في المنطلق مقابل المحمول وفي الكتابة بمعنى قضية او مضمون حيث يقال : موضوع البحث، ومنه اشتقت : موضوعية لروح العلمية النزيهة في البحث، كما اعتبرت صفة لما هو خارج عن وعي الانسان حيث نقول : الذاتي والموضوعي، ونقول : المثالية الموضوعية مقابل المثالية الذاتية للمدرسة المثالية التي تقر بوجود الواقع لكنها تقول باولية الروح.. وللخلاص من هذا التلابس يمكن للكاتب ان يقول : الشيء المحطوط في كذا.

وأرجو أن تكون هذه الامثلة اليسيرة منطلقا للممارسة في هذا المضمار.. ويبقى الامر في كل الاحوال رهنا بالخروج من دائرة الارهاب اللغوي حتى يمتلك الكتاب حرية الكلام التي صادرها اللغويون منهم...